

حلم الدولة الكردية في ضوء الاستفتاء الأخير: خطأ التقدير*

محمد علي إسماعيل**

صبيحة الثلاثاء الحادي والثلاثين من أكتوبر استبقت القوات العراقية والتركية - المشاركة في مناورات عسكرية مشتركة في ولاية شرناق التركية منذ ما يُرْو على الأربعين يوماً - زيارة رئيس الأركان العراقي الفريق الأول الركن عثمان الغانمي إلى أنقرة وتحركت بإتجاه معبر "الخابور" على الجانب التركي مع العراق وسط تضارب أبناء عن سيطرتها على معبر "إبراهيم الخليل" على الجانب العراقي الخاضع لحكومة إقليم كردستان^١. وتأتي زيارة الغانمي -بحسب بيان لخلية الإعلام الحربي- "للاطلاع ميدانياً وتحديد المتطلبات العسكرية والأمنية لإكمال تنفيذ قرارات الحكومة الاتحادية في مسك الحدود الدولية وإدارة المنافذ اتحاديا والانتشار الكامل للقوات الاتحادية في جميع المناطق التي امتد إليها الإقليم بعد العام ٢٠٠٣"^٢.

تأتي هذه التحركات المتسارعة من قبل القوات الاتحادية العراقية، تلبيةً لقرار قد أُتخذ عشية الاستفتاء الكردي من قبل المجلس الوزاري للأمن القومي برئاسة رئيس الوزراء حيدر العبادي^٣. كانت القوات العراقية مدعومة من قبل قوات الحشد الشعبي قد بسطت سيطرتها في وقت سابق على مناطق متنازع عليها بين حكومتي بغداد وأربيل؛ منها محافظة كركوك وسهل نينوي وقضاء سنجار، وقضاء خانقين وجلولاء التابعتين لمحافظة ديالى مع الحدود الإيرانية^٤.

تدفع السيطرة المتنامية للحكومة الاتحادية على حقول نفط كركوك، والمناطق المتنازع عليها في شمال العراق والمعايير مع إيران وتركيا وسوريا، إلى السؤال عن مستقبل مشروع أو حلم الدولة الكردية بعد استفتاء إقليم كردستان العراق؟

الأكراد: ألد أعداء لأنفسهم!

كشف الاستفتاء النقب عن تفتت الجبهة الداخلية الكردية ولا سيما على صعيد القيادة السياسية للأكراد، التي لم تكن مُجمعة على إجراء الاستفتاء في ذلك الوقت، وكشف كذلك عن التذمر من القيادة الأحادية للبارزاني وتحكّمه

* - ورقة ضمن مشروع الباحثين بالمركز للعام ٢٠١٧.

** - باحث علوم سياسية.

^١ - بغداد تضع أول موطئ قدم لها على حدود كردستان مع تركيا، رويترز، ٢٠١٧/١٠/٣١، (تاريخ الدخول ٢٠١٧/١١/٣)،

للاطلاع انظر الرابط التالي: <https://qoo.gl/vqioxn>

^٢ - كردستان: قوات عراقية تركية تدخل معبر إبراهيم الخليل، المدن، ٢٠١٧/١٠/٣١، (تاريخ الدخول ٢٠١٧/١١/٣)، متاح على

الرابط التالي: <https://qoo.gl/HSUq3N>

^٣ - بغداد تأمر كردستان بتسلم المنافذ الحدودية والمطارات، الخليج أونلاين، ٢٠١٧/٩/٢٤، (تاريخ الدخول ٢٠١٧/١١/٣)، متاح على

الرابط التالي: <https://qoo.gl/SXmEyt>

^٤ - القوات العراقية تسيطر على مناطق خاضعة للأكراد في نينوي، روسيا اليوم، ٢٠١٧/١٠/١٨، (تاريخ الدخول ٢٠١٧/١١/٣)،

متاح على الرابط التالي: <https://qoo.gl/fD°cDa>

وحزبه في المشهد الكردي في ظل الانسداد السياسي والمماطلة في إجراء الانتخابات^٥. هذا الانقسام الكردي هو السائد دائماً في مسيرة الأمة الكردية منذ ثورة الشيخ عبيد الله ضد الدولة العثمانية في ثمانينات القرن التاسع عشر^٦.

ظهر الانقسام أولاً، على هيئة نخبط بين الأجنحة المتصارعة على قيادة حزب الاتحاد الوطني الكردستاني، والتي لم تستطع ملاً الفراغ الذي تركه الزعيم الراحل للحزب جلال الطالباني. ففي الوقت الذي استمالت فيه طهران جناح أسرة طالباني - تحديداً بافل ولاهور طالباني - اللذين فضلا عن تأجيل الاستفتاء، عملت أربيل على استمالت جناح كوسرت رسول النائب الأول لأمين عام الاتحاد الوطني، ومثلاً بختيار مسئول الهيئة التنفيذية في المكتب السياسي للحزب إلى جانب قباد طالباني شقيق بافل ونائب رئيس وزراء حكومة كردستان، واللذين أظهروا جميعاً دعماً للاستفتاء^٧.

أما حركة التغيير (غوران) فتركت حرية التصويت لأنصارها كلٍّ بحسب تفضيلاته الشخصية. وعلى صعيد الأحزاب الإسلامية^٨، ففي الوقت الذي دعم فيه الاتحاد الكردستاني الاستفتاء، عارضته الجماعة الإسلامية في كردستان. وعلى الرغم من كل هذه الانقسامات ذهب الأفرقاء السياسيون إلى الاستفتاء تحت ضغط حلم الاستقلال الكردي.

تداعيات سوء التقدير الاستراتيجي لبارزاني على المشروع الكردي

لو علم الزعيم الكردي التاريخي والرئيس السابق لإقليم كردستان العراق مسعود البارزاني أن إصراره على إجراء الاستفتاء ضد رغبة الحكومة المركزية العراقية والأطراف الإقليمية - تركيا وإيران - والدولية الداعمة للإقليم - الولايات المتحدة ودول الاتحاد الأوروبي وروسيا- سوف يؤدي إلى تلاشي سيطرته على المناطق المتنازع عليها مع الحكومة الاتحادية، بما فيها كركوك التي تنتج قرابة ثلثي نפט الإقليم^٩، وخسارة الأفراد بالسيطرة على المعابر الحدودية^{١٠}، وكذلك خسارة الأطراف الإقليمية الداعمة كالأترك، وتخليه عن قيادة المشهد السياسي الكردي وتقاسم صلاحياته بين الرئاسات الثلاث (البرلمان، والحكومة، مجلس القضاء)؛ وترحيل الحلم الكردي بالانفصال إلى أجل غير مسمى لما أقدم البارزاني على تلك الخطوة الانتحارية.

^٥ - كريستين مكافراي فان دين تورن، ((انقسامات داخلية خلف استفتاء كردستان))، كارنيجي (٢٠١٧/١٠/١١)، تاريخ الدخول <https://goo.gl/Ykrdet>، متاح على الرابط التالي: (٢٠١٧/١١/٣)

^٦ - هارفي موريس وجون بلوج، ((لا أصدقاء سوي الجبل)) ت. راج آل محمد.

^٧ - كريستين مكافراي فان دين تورن، مرجع سابق.

^٨ - غوران: الناس أحرار في التصويت كما يختارون في الاستفتاء، روداونيت، ٢٤/٩/٢٠١٧، (تاريخ الدخول ٢٠١٧/١١/٣)، متاح

على الرابط التالي: <https://goo.gl/zFCKZQ>

^٩ - مفاجأة .. كردستان يلتهم نפט العراق باحتياطي ٤٥ مليار برميل، العربية، ٢٦/٩/٢٠١٧، (تاريخ الدخول ٢٠١٧/١١/٣)، متاح

على الرابط التالي: <https://goo.gl/XS11Ei>

^{١٠} - الأكراد يعرضون نشر قوات مشتركة والعراق يهدد بالعمل العسكري، رويترز، ٢٠١٧/١١/٢، (تاريخ الدخول ٢٠١٧/١١/٣)، متاح

على الرابط التالي: <https://goo.gl/DSKLzB>

اعتقد بارزاني أن الظرف الدولي داعم لإنشاء دولة كردية خاصةً في ظل الوفود الدولية التي كانت تتدفق على الإقليم، والدعم العسكري المقدم من الغرب لقوات البيشمركة في قتلها ضد تنظيم الدولة. والدعم الإقليمي، المتمثل في الدعم الإسرائيلي لإقامة دولة كردية^{١١}. وتعتبر إسرائيل هي الدولة الوحيدة التي أعلنت دعمها بشكل علني لانفصال كردستان، حيث جاء على لسان رئيس وزرائها نتنياهو أن إسرائيل "تدعم الجهود المشروعة للشعب الكردي للحصول على دولة خاصة به"، وكذلك تصريحات النائب السابق لقائد جيشها يائير جولان أنه "حينما ننظر إلى إيران في الشرق، وعندما تتأمل في حالة عدم الاستقرار التي تمر بها المنطقة، فإن كياناً كردياً موحدًا ومستقرًا في وسط هذا المستنقع ليس فكرة سيئة على الإطلاق". وكذلك الدعم السعودي الذي ظهر إلى العلن من خلال تصريحات الجنرال السعودي المتقاعد ومدير مركز الشرق الأوسط للدراسات الاستراتيجية والقانونية أنور عشقي، والتي أيد فيها "العمل على إيجاد كردستان الكبرى بالطرق السلمية، لأن ذلك من شأنه أن يخفف المطامع الإيرانية والتركية والعراقية التي ستقتطع الثلث من هذه الدول لمصلحة كردستان"^{١٢}، ولم يتوقف الدعم السعودي على مجرد تصريحات عشقي، بل أرسلت الرياض وزير الشؤون الخليجية ثامر السبهان، إلى الرقة حيث ظهر برفقة بريت ماكغريك، المبعوث الأمريكي الخاص إلى الحملة المناهضة لتنظيم الدولة الإسلامية، وقادة عسكريين تابعين لقوات سوريا الديمقراطية التي تدعمها الولايات المتحدة (وهي مجموعات كردية مسلحة مدعومة من الولايات المتحدة الأمريكية).

إصرار البارزاني على إجراء الاستفتاء جاء نتيجة خطأ جسيم في تقدير الظرف الدولي، وكذلك في تقدير قوة خصمه، والفشل في قراءة مدى الانقسامات الداخلية الكردية خاصةً على صعيد الأفرقاء السياسيين، والاعتقاد بأن السير قدمًا في تحقيق الحلم الكردي بإقامة دولة مستقلة، وتصدير الأزمة خارج الإقليم ستؤدي إلى توحيد الجبهة الداخلية خلفه أو على أقل تقدير تهميش المجموعات الراضية للاستقلال.

وعلى الرغم من التصريحات الراضية لإقامة الاستفتاء أو الداعية لتأجيله من الداعمين الدوليين، أصر بارزاني على إقامة الاستفتاء في موعده ليجد نفسه وحيداً أمام خصومه، ليستدعي هذه المرة أنصار حزبه حكيمه خصمه الراحل جلال الطالباني: "ليس للأكراد صديق سوى الجبال"^{١٣}، ويلقبوا باللائمة على الولايات المتحدة لخيانتها الأكراد^{١٤}.

^{١١} - انفصال كردستان عن العراق اسرائيل الداعم الوحيد، عرب ٤٨، ٢٠١٧/٨/١٨، (تاريخ الدخول ٢٠١٧/١١/٣)، متاح على الرابط التالي: <https://goo.gl/WCHQhi>

^{١٢} - المصلحة السعودية في انفصال كردستان، ساعة الحدث، ٢٧/٩/٢٠١٧، (تاريخ الدخول ٢٠١٧/١١/٨)، للاطلاع انظر الرابط التالي: <https://goo.gl/s^VC^U>
^{١٣} - تحت عنوان مُقارب كتب الصحفيان الغربيان "هارفي موريس، وجورج بلوج" كتابهم عن القضية الكردية " لا أصدقاء سوي الجبال .. التاريخ المأساوي للأكراد". يقدم مزيد من الاطلاع على الخذلان الغربي لهذه القضية وبخاصة الأمريكي.
^{١٤} - لماذا تركت واشنطن أكراد العراق لمصيرهم؟!، شمراسي، ٢٢/١٠/٢٠١٧، (تاريخ الدخول ٢٠١٧/١١/٨)، متاح على الرابط التالي: <https://goo.gl/DqvyBz>

كذلك أخطأ البارزاني في تقدير قوة بغداد العسكرية النظامية وغير النظامية (قوات الحشد الشعبي)، ومدى الدعم الإقليمي - الإيراني تحديداً - والدولي التي تحظى به هذه القوات، وحجمها ونوعية تسليحها. وعلى صعيد البيت الكردي فشل في تقدير مدي الإنقسام الداخلي الذي لعب عليه خصومه جيداً^{١٥}.

أحسن الجنرال الإيراني قاسم سليمانى استغلال علاقاته بحزب الاتحاد الوطني الكردستاني الخصم الرئيسي للحزب الديمقراطي الكردستاني بزعامة بارزاني، ونصح سليمانى حلفاءه بسحب قواتهم من كركوك وإلا سيتعرضون لهجوم شرس من القوات العراقية المدعومة إيرانيًا، دفع تحذير سليمانى قيادة حزب الاتحاد الوطني لسحب قواتها من كركوك والمناطق المتنازع عليها؛ الأمر الذي عمق الشقاق الكردي، ودفع البارزاني لاتهمهم بالخيانة^{١٦}.

وتثير تبعات هذه التقديرات الخاطئة للموقف من قبل بارزاني تساؤلات كثيرة حول مستقبل الإقليم الكردي وحدود سلطاته وطبيعة علاقاته بالحكومة المركزية.

استمرار الحكم الذاتي أم إلحاق ببغداد؟

منح الدستور العراقي صلاحيات فيدرالية واسعة لإقليم كردستان العراق، وعمل الإقليم على توسيع هذه الصلاحيات، ومنذ يونيو ٢٠١٤ تمدد الإقليم للمناطق المتنازع عليها؛ للملء الفراغ الذي خلّفته الحكومة العراقية، وتدبير مصادر دخل إضافيه للإقليم، الذي كشف تدهور أسعار النفط عام ٢٠١٤ عن خلل بنيوي في إقتصاده. لم تدعن بغداد لفرض أمر واقع بشكل أحادي من قبل حكومة إربيل، وتركت ملف الإقليم لحين الإنتهاء من خطر تنظيم الدولة. وفي السادس عشر من أكتوبر شنت الحكومة العراقية حملة بتنسيق إيراني، وضوء أخضر أمريكي على كركوك والمناطق المتنازع عليها واستعادتها من قبضة البيشمركة بأقل الخسائر؛ نتيجة للتنسيق المسبق مع حزب الاتحاد الديمقراطي فرع أسره طالباني.

تبدو بغداد عازمة على تفويض امتيازات الإقليم، حيث تعمل بغداد على السيطرة على المعابر الحدودية بشكل منفرد، أو على أقل تقدير الإدارة المشتركة للمعابر مع حكومة كردستان؛ حيث تكون الإدارة المدنية كردية، والعسكرية اتحادية، وكذلك السيطرة على كافة الأراضي المتنازع عليها مع الإقليم، بل إن الأمر قد يمتد، وفي غمار الانتصارات السهلة، إلى تخطي حدود الأراضي المتنازع عليها لسيط النفوذ على أراضي كردية كمعبر فيشخابور. قدمت حكومة

^{١٥} - الفائز من مقامة أكراد العراق بالحكم الذاتي في الاستفتاء، رويترز، ٢٠١٧/١٠/٣١، (تاريخ الدخول ٢٠١٧/١١/٣)، متاح على

الرابط التالي: <https://goo.gl/xLJL3c>

^{١٦} - بارزاني يتهم الاتحاد الوطني بالمسؤولية عن الانسحاب من كركوك، ٢٠١٧/١٠/١٧، (تاريخ الدخول ٢٠١٧/١١/٣)، متاح على

الرابط التالي: <https://goo.gl/Q3mkxh>

كردستان تنازلاً بتجميد نتائج الاستفتاء بعد شهر من انعقاده^{١٧}، وكذلك القبول بإدارة المعابر بشكل مشترك، لكن بغداد تتطلع إلى المزيد.

ليس من مصلحة طرفي الأزمة التصعيد عسكرياً، فالجيش العراقي لم يختبر بعد قدراته في السيطرة على الأراضي التي استعادها من قبضة تنظيم الدولة والبيشمركة إلا أن السوابق تشير إلى ضعف قدرة هذا الجيش على الاحتفاظ بالأراضي، وكذلك ليس من مصلحة أربيل المحاصرة بين تركيا وإيران وبغداد القتال ضد الحكومة المركزية.

تشير المؤشرات السابقة إلى أن الحلم الكردي بإقامة دولة بات الآن صعب المنال، وكذلك العودة لحدود الرابع والعشرين من سبتمبر - حدود كردستان عشية الاستفتاء - باتت كذلك من الماضي، وفي ظل إصرار الحكومة المركزية على السيطرة على كل الأراضي المتنازع عليها والمعابر فإن العودة لحدود العام ٢٠٠٥ أصبح مشكوكاً فيها. وفي ظل انقسام كردي - كردي فإن التوقع في أربيل والسليمانية يبقى هو الخيار إلى حين.

على صعيد الطرف الإقليمي والدولي، لا تبشر الأمور بخير بالنسبة للدولة العراقية، ففي ظل اعتزام بعض الأطراف الإقليمية والدولية التصعيد ضد طهران وحلفائها قد يجد العراق نفسه مسرحاً لهذا التصعيد، وكذلك قد يكون أبنائه أدوات في صراع إقليمي ودولي لا دخل لهم به.

^{١٧} - حكومة إقليم كردستان العراق تجمد نتائج الاستفتاء، الأهرام، ٢٥/١٠/٢٠١٧، (تاريخ الدخول ٣/١١/٢٠١٧)، متاح على الرابط التالي: <https://qoo.gl/rmsndx>